

جمالية الصورة الشعرية والتكثيف:

قراءة في ومضة (حنين)

محمود عبد الرحيم الرجبي، الأردن

حنين

سَامَرَ الليل، جَنَحَتْ به الأشواق بعيداً، وجدوه ملقياً على شاطئ
الغربة وحيداً، يلفه الحزن.

(حنين²) عنوان افتتاحية الومضة القصصية ليس أكثر من طعم ذكي لإيقاعنا في مصيدة الكاتب والحزن، فمن منا لا يشعر بالحنين إلى شيء أو إنسان ما؟!، إن كلمة (حنين) بحد ذاتها، تُشعل موقد الذكريات بحطب القلوب الدافئة، فالحنين رحلة نقوم بها كل يوم مرغمين إلى داخلنا، فنغمض عيوننا ونسير على هدي قلوبنا في حقول أفراحنا وأحزاننا، لقد أبدع الكاتب في وضعة هذه الكلمة التي قد تختصر حياة كاملة بكل ما فيها من أحداث خلفها، لما لهذه الكلمة من دلالات عميقة في وجداننا، فالحنين صوت الأم إلى ولدها؛ صوت الذي في فؤاده نزعرة ألم؛ صوت الريح والنسيم الرقيق؛ صوت العود عند النقر عليه؛ صوت القوس عند الإنباض؛ صوت المرأة تفتقد

² بسام جميدة. ويبقى النهر مندفعاً. مجموعة ومضات قصصية. سلسلة ومضات قصصية. الكتاب الرابع. طبعة ثانية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، أبريل 2015. ص 81.

زوجها؛ صوت المشتاق)، الحنين بستان مشاعر يحوي كل ما تريد من أحاسيس جميلة وغريبة ومؤلمة في نفس الوقت !!

(سَامَرَ الليل) إنها الكلمات التي يبدأ الكاتب فيها ومضته، وهو لا يتوقف عن محاولة تهيئة نفوسنا لدهشة قادمة، وكأن ما سيأتي سيكون مؤلماً لنا أكثر من الحنين الذي أيقظه قبل قليل فينا!!

تبدأ الومضة القصصية بإثبات العلاقة بين الشوق والحنين والسهر والليل بقوله: (سَامَرَ الليل)، وكما نلاحظ: إنها علاقة لونية والتصاق في نفس الوقت، الالتصاق يظهر في أن الحنين يخلق القلق الذي يصنع الأرق ويمنع النوم ويجلب السهر والذكريات المؤلمة عن الأحبة والأصدقاء، فالحنين صرخة في داخلنا عبر صمتنا لا يسمعها إلا من يُحسن قراءة العينين ويحترف الحزن، إنها صرخة فينا ولنا: (الحياة أقصر من أية مسافة بيننا!!)، البعد هو الخنجر الذي نطعن به أنفسنا، والدماء التي تسيل هي الحنين!!

الحنين يحرق حطب القلب وينثره رماداً في عيوننا المطفأة من كثرة السهر، الرماد أسود لأنه جزء من موت نمارسه كل ليلة كما النوم، النوم موت مؤقت، احتراقنا بالحنين موت مؤقت، القلب طائر العنقاء الذي يموت ويحيا من رماده عندما يشيخ، والقلب عنقاء الجسد إلا أنه لا يشيخ وإنما يحترق كل يوم بنار الحنين اللاهبة، والليل أسود والموت أسود والحزن

أسود، فيلنتقي معنى الالتصاق بالدلالة اللونية ومفهوم الافتقاد والشوق والحنين في كلمتين فقط: (سَامِرَ الليل) لأن الكاتب مهد للدخول بفتح بوابة الحزن على مصراعيها بكلمة: (حنين)!!

يتفنن الكاتب في خلق صورة شعرية جميلة ومؤلمة في نفس الوقت، كي يزيد من قدرتنا على تخيل الأحاسيس الكامنة في النص، وكي ينقل إلينا أكبر جرعة ممكنة من حزنه الشخصي وشعوره بالعجز (جَنَحَتْ به الأشواق بعيداً، وجدوه ملقياً على شاطئِ الغربةِ وحيداً)، فالغربة بحر متلاطم الأمواج، والأشواق قاربه الوحيد الذي يضمن له القدرة على الحياة والمقاومة، ولكن ربح الشعور بالمرارة والحزن والحنين والافتقاد، أقوى من أشرة الصبر والإيمان والتحمل بكثير، فيجرح قارب الأشواق به بعيداً في بحر الحياة حتى يصل وحيداً إلى شاطئِ غربة جديد كما كان وحيداً، نعم، إنه شاطئِ غربة جديد تماماً، إنه ينتقل من غربة الجسد إلى غربة الروح، يمكن للإنسان أن يتحمل أية غربة مع كلِّ آلامها، إلا غربة الروح، لأنها تقتله وتقتل نفسها كلَّ لحظة حنين قادمة، فيصبح الغرباء أجساداً بأرواح ميتة، ويصبح الحزن هو الكفن الذي يغطي أجسادنا، لأننا ميتون نحياً وهم الحياة بأجسادنا!!

أنظر إلى روعة استخدامه لفعل (جَنَحَتْ) وهو خاص بالقوارب والسفن (جَنَحَتْ السفينةُ: انتهت إلى الماءِ القليل، فمالت ولزقتُ بالأرضِ، فلم

تمض)، الكاتب يستخدم البلاغة والبديع هنا لزيادة التأثير في أعماقنا ولتصوير الحالة النفسية للغريب، باستخدام اللغة، فهو يقدم تشبيهاً ضمناً خفياً بطريقة رائعة، عندما يشبه الغريب التائهة في غربة المكان والذي يحرقه الحنين والحزن والشوق كلَّ يوم، والذي لم يعد يملك من أمره شيئاً بسبب ظروف الحياة القاتلة، والتهجير والظلم، مما يؤدي إلى حالة من الضياع وفقدان البوصلة وتنتهي بأن يجنح إلى الموت، تماماً مثل السفينة التي فقدت شراعها وقدرتها على مقاومة الريح العاتية، فتستسلم إلى القدر، وتجنح إلى شاطئ جديد محطمة مدمرة بلا حياة!!.. إنه تشبيه ضمني بليغ كما قلنا (التشبيه الضمني: إذا تم الربط بين الصورتين بدون استخدام أداة تشبيه سمي التشبيه بالتشبيه الضمني) وهو يلح من خلال الكلام وليس موضوعاً على صورة التشبيه العادي) وهو تشبيه خفي لا يأتي على الصورة المعهودة ولا يُصرح فيه بالمشبه والمشبه به، بل يُفهم ويُلمح فيه التشبيه ويكون الطرف الثاني دليلاً على الطرف الأول وللتأكيد على صحة الأول في بعض الأحيان).

كلُّ الدهشة المفرطة في الصورة والتكثيف الهائل في المعنى، لم تكف الكاتب بعد، فهو يريد إغراقنا حتى الثمالة بنقله حالة وشعور الغريب والمهجر إلى الأحبة والوطن، لذا يعمد إلى طعن أحاسيسنا طعنته الأخيرة المؤلمة لقلوبنا عندما يكمل المشهدية المدهشة بقوله يلفه الحزن)، انظر

للبلاغة والتشبه البليغ بقوله: (يلفه الحزن) فقد جعل الحزن كالكفن الذي يلف الميت أي مثل لف الكفن للجسد، مع فرق لوني واضح وهو أن الحزن هو أسود والكفن أبيض بالمعتاد، وهذه استعارة مدهشة: (الركنان الأساسيان في أركان التشبيه الأربعة هما: (المشبه والمشبه به)، وإذا حُذِفَ أحدهما أصبحت الصورة استعارة؛ فالاستعارة تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، أما أداة التشبيه ووجه الشبه فهما ركنان ثانويان حذفهما يعطي التشبيه جمالاً أكثر وقوة). وهذا ما فعل الكاتب تماماً فقد حذف المشبه به وهو الكفن وترك ما يدل عليه وعملية اللف، وإذا أخذنا الصورة كاملة للقصة الومضة، فإن الكاتب أبدع من الناحية السردية في خلق صورة شعرية مكثفة وموجزة في إطار تشبيه تمثيلي خفي بشكل جديد وغريب بين صورتين: صورة المركب الذي يجنح في البحر، وصورة الغريب الذي يتوه حزيناً وحيداً في غربته، والنهاية هي واحدة: الضياع والحزن أو الموت كما رأينا هنا !!

إن قصة كهذه تعيد إلى الذاكرة السؤال المحير: (لماذا يكتب الإنسان)، هل لأن الكتابة كما يقول الكاتب أيمن عبد المعطي في مقالته (اكتب كي لا تكون وحيداً): (مساحة لإعادة النظر للعالم من حولي ومحاولة تفسيره، وهي وقفة مع الزمن والأحداث، وقفة تحاول الخروج بفهم أفضل ورؤية أكثر اتساعاً، هل لأن الكتابة أيضاً فعل إنساني، فرغم صدوره عن ذات مفردة، إلا أنه يغوص في حيوات بشر من لحم ودم ومشاعر وقدرات متفاوتة من

التفكير وتراكم الخبرات،؟!، (هل لأن الكتابة داء ودواء في ذات الوقت، تماماً أحدهما يجرحك والآخر يكوي جرحك، وبالقطع لا يمكنك تفادي الجراح، فهي ما تجعلك تشعر بالحياة حلوها ومرها وبجدليتها غير المتناهية بين عناصر متوافقة أحياناً ومتباينة أخرى ومتعارضة معظم الوقت، هكذا تسير الأمور كتابات حزينة وثانية شجية وثالثة مبهجة وأخرى كثيرات معبرات عن حالات شتى. هذا ما يفسر تأثرنا بحالات مختلفة عبر القراءة، فلماذا نظير من السعادة أو نذرف دموعاً أو نتأسى أو نشعر برجفة في أوصالنا أو تملؤنا الحماسة والإصرار عند التعرض لقراءة أعمال؟ هذا بالضبط ما أقصده بالداء والدواء، فالكاتب مريض بالكتابة وفعلها مصدر شفائه منها، تظل الأفكار تتفاعل بداخله، وإن لم يطلقها من محبسها بعد أن تنضج فسوف تؤرقه ليل نهار، وبعدها ستتغذى على خلاياه فيصيبه الوهن والاكنتاب لأنه لم يبيح بما جال بخاطره. تماماً هذا ما نصل إليه عندما نقرأ ما كتبه أي شخص.. يدمينا ويضمدنا في ذات الوقت.. يفرحنا ويبكيننا.. يتحفنا ويطرح علينا تساؤلات جديدة)؟!!

أم أننا نكتب لأننا نحب أن نكتب فقط، هكذا بدون أي تبرير أو فلسفة لرغبتنا في الكتابة؟!!